علم لاهوت الديانات في منظوره «السياقيّ»

الأب ڤيكتور أسود اليسوعيّ*

إنّ مسألة دور يسوع المسيح في نظام الخلاص هي، من وجهة نظر المسيحيّين، العقدة الأساسيّة في موضوع علم لاهوت الديانات. وهذا ما يؤكّده الأب جاك دُوبِوِي (Jacques Dupuis) في كتابه: يسوع المسيح في لقائه الديانات[1] عندما يقول: «يبدو واضحًا منذ البدء أنّ علم لاهوت الديانات المسيحيّ يجب أن يتمحور حول مسألة البحث عن دور شخص المسيح في الديانات. ذلك طبيعيّ: إنّ سرّ يسوع المسيح، الذي هو مِحور الإيمان المسيحيّ، هو المقياس الأساسيّ والنهائيّ لمعطيات باقي التقاليد الدينيّة»[2]. وفي مقطع آخر يضيف: «إنّ المطلب الذي يعتبر أنّ يسوع المسيح هو مخلّص جميع البشر الوحيد والشامل، يمثّل الموضوع الجوهريّ والحاسم في مجمل علم لاهوت الديانات»[3]. وإذا أخذنا ذلك في عين الاعتبار، فإنّ السؤال الذي يطرح نفسه علينا هو الآتي: هل الاعتراف بوحدانيّة يسوع المسيح وشموليّته يستند إلى إعلان بعض ألقاب خاصّة بيسوع (مثلًا: المسيح، ابن الله، الربّ، . . . إلخ) وهي تُعدّ قياسيّة وغير قابلة التعديل؟ يبدو أنّ هذا ما يوحي به بالضبط جاك دوبِوِي عندما يؤكّد: «بالنتيجة، فإنّ الأساس اللاهوتيّ الوحيد الصحيح لوحدانيّة يسوع

(*) ثانويّة سيّدة الجمهور – لبنان.

(١) Jacques DUPUIS, *Jésus-Christ à la rencontre des religions*, Collection Jésus et Jésus-Christ N°39, Desclée, Paris, 1989.

(٢) المرجع السابق، ص ١٦.

(٣) المرجع السابق، ص ١٦.

المسيح هو هُويّته الشخصيّة كونه ابن الله»[٤].

سوف تتناول دراستنا الوجيزة ثلاثة أمور: قضيّة صوغ الألقاب المسيحانيّة، وظيفة علم المسيحانيّة، وأخيرًا موقع المسيحانيّة في علم الديانات.

١ - صَوْغ الألقاب المسيحانيّة

أمّا في شأن صوغ الألقاب المسيحانيّة كما عرفتها الجماعات المسيحيّة الأولى، فنستعين بكتاب مارينُوس دي جُونْج (Marinus de Jonge) وهو بعنوان: المسيحانيّة السياقيّة[٥]. إنّ السؤال الأوّل المطروح في هذا البحث هو التالي: ألَم ينسب يسوع هذه الألقاب إلى نفسه إبّان مسيرته التاريخيّة على الأرض؟ للإجابة عن هذا السؤال، ينبغي معالجة بعض الألقاب المختصّة بالمسيح؛ وقد وردت في العهد الجديد، مثل: إبن الإنسان، ابن الله، المشيح أو المسيح. ويلخّص مارينوس دي جونج نتيجة بحثه قائلًا: «بالتأكيد إنّ يسوع كان يتمتّع بإدراك رسالته إدراكًا حادًّا وكذلك علاقَته الخاصّة بالآب، وبالتالي بنوّته الإلهيّة. لكن ما من شيء يؤكّد أنّ يسوع خصّ نفسه بلقب من الألقاب العديدة المختصّة بالمسيح وقد ازداد عددها لاحقًا. وعلى أكثر تقدير، ربّما عدّ يسوع بعض التسميات مناسبةً فقبِل بها، لكنّه فسّرها على طريقته الخاصّة، بحرّيّة وإبداع، دون أن يروّجها، لا بل معارضًا انتشارها»[٦]. وهذا الاستنتاج يُحيل المسيحيّين، بحسب دي جونج، إلى حرّيّتهم ومسؤوليّتهم: «إنّ البحث في المسيحانيّة اليوم لا يكون بتكرار التعابير الجامدة بدون حرج، بل يتحقّق عبر صياغة حالات جديدة وإطار مستحدث، وذلك بالأمانة

---

(٤) J. DUPUIS، المرجع السابق، ص ٢٦٨.

(٥) Marinus de JONGE, *Christology in context: The earliest Christian response to Jesus*. The Westminster Press, Philadelphia, 1988.

(٦) المرجع السابق، ص ٢١١.

للذكرى ولحدث أساسيّ»[٧]. ويؤكّد ذلك قوله: «إنّ المسيحيّين الأوّلين عبّروا عن معتقداتهم وإيمانهم عن طريق كلمات وصور وتشابيه أخذوها من التقاليد والثقافات التي كانوا يقاربونها. لقد استعملوا أنواعًا كثيرة من الألفاظ ليعبّروا عن نظرتهم إلى الأحداث والحقيقة التي كانوا يريدون إبلاغها. وتلك الألفاظ والتعابير والتصوّرات يكمّل بعضها بعضًا فتنفي عن نفسها صفة الحصريّة لأنّها تلبّي حاجات مختلفة وتنظر إلى مظاهر حالات متعدّدة. لذلك، فإنّ علم المسيحانيّة عليه أن ينطلق، دون ريب، من إطار الواقع الموضوعيّ. من الطبيعيّ أن تظهر بعض الفوارق والنماذج المختلفة، ولكن ما من عنصر خاصّ يمكنه أن يطغى على ما عداه ويشوّه الحقيقة بوجه الإجمال. وفي حال حدوث نزاع، كما يتّضح ذلك من رسائل القدّيس بولس إلى أهل غلاطية وأهل قولوسّي، لا يتردّد المسؤولون في الجماعات المسيحيّة الأولى في الحكم على بعض المواقف أو الممارسات، حتّى لو إنّ المدافعين عنها اعتبروها مطابقة للمفهوم المسيحيّ. غير أنّه يبقى واضحًا أنّ الحالات والأوضاع كانت متعدّدة جدًّا والتقاليد المتعلّقة بالمسيح ذات غنى مبين. لذلك، فالأجوبة البسيطة التي تستند إلى جانب واحد لم تكن لترضي الذين يوجّهون الأسئلة، كما أنّها لم تكن تعكس حقيقة يسوع الكاملة»[٨].

النقطة الثانية تتناول وظيفة علم المسيحانيّة بوجه عامّ.

٢ – وظيفة علم المسيحانيّة

إنّ وظيفة علم المسيحانيّة الأساسيّ هي، على ما يبدو، البحث عن تطابق بين العناوين التاريخيّة الخاصّة والحقيقة الخلاصيّة الموضوعيّة: لأنّ مَن يؤمّن الخلاص هو الوسيط عينه، مهما كان التعبير الذي بواسطته نستطيع اختبار المخلّص ومعرفته وتسميته. فالألقاب بحدّ ذاتها لا

---

(٧) M. de Jonge، المرجع السابق، ص ٢١٢.
(٨) المرجع السابق، ص ٢١٢-٢١٣.

تخلّص. حتّى إنّ الهتاف: «يسوع هو الربّ» لا يخلّص وحده؛ وليس بالقول: «يا ربّ، يا ربّ» ندخل ملكوت السموات بل بالعمل بمشيئة الآب (متّى ٧، ٢١). والقول بأنّ «يسوع هو الطريق» لا يكفي بدوره: يجب سلوك الطريق أوّلًا للوصول بعدئذٍ إلى الهدف. ففي آخر الطريق فقط، كما حصل لتلميذي عمّاوس، يُعرف الطريق باسمه (لوقا ٢٤، ٣١). وفي الواقع إنّ العمل بمشيئة الربّ، أي معرفة الطريق وسلوكه، لا يرتبط حتميًّا بإعلان الإيمان الواعي وهويّة المخلّص. ففي نصّ «الدينونة العظمى» لا يَفرض المَلك السماويّ معرفة الاسم أو اللّقب، في حين يفرض معرفة الطريق (متّى ٢٥، ٣٧-٤٠ و٤٤-٤٦): «يا ربّ متى رأيناك جائعًا فأطعمناك أو عطشانًا فسقيناك؟ ومتى رأيناك غريبًا فآويناك أو عريانًا فكسوناك؟ ومتى رأيناك مريضًا أو سجينًا فأتينا إليك؟ فيجيبهم الملك: الحقّ أقول لكم: كلّما صنعتم شيئًا من ذلك لواحد من إخوتي هؤلاء الصغار، فلي قد صنعتموه».

لهذا السبب، فإنّ محاولات علم المسيحانيّة التي لا تتخطّى تأويل النصوص النظريّ، لا تستطيع أن تكون إعلانًا يكشف أنّ يسوع هو المخلّص. يمكننا القول إنّ محاولات علم المسيحانيّة ترتكز على القوّة الإلهيّة الفاعلة التي تُثبت أنّ وسيط الخلاص (أي يسوع المسيح) هو حيّ ويعمل عبر جماعة المؤمنين به حاليًّا.

إستنادًا إلى ما ورد، يَخلُص دي جونج، وهو يفكّر في دور المسيحانيّة الحاليّ، إلى القول: «إنّ العمل المسيحانيّ استمرّ حتّى أيّامنا. (. . .) نقترح أن تُتابع دراسات علم المسيحانيّة في أيّامنا النهج عينه الذي عرفناه منذ مراحل المسيحيّة الأُولى. يجب الصمود أمام محاولات التوفيق أو الاكتفاء بنموذج واحد، وينبغي إبداء الآراء المختلفة ضرورةً إذ إنّ هذه الآراء تتكامل فيما بينها وتصحّح نفسها بنفسها. فعلى دراسات علم المسيحانيّة أن تتحاشى الإسراع في الحكم بين العقيدة الصحيحة والهرطقة كما حدث في أثناء المجامع المسكونيّة الكبيرة أو في أثناء الإصلاح إبّان القرن السادس عشر. إنّ التقليد الغنيّ الذي في متناولنا

يصمد دومًا أمام محاولات فرض نظام مغلق (. . .) بل ينبغي إعداد أشخاص قادرين على التفكير بطريقة خلاّقة لصياغة صور جديدة وسرد أمثال عصريّة أو تأليف قصائد وأناشيد لترجمة وإحياء التقاليد القديمة المتعلّقة بيسوع ونقلها إلى حاضرنا»[٩].

٣ - المسيحانيّة وتعدّد الديانات

أخيرًا، ماذا عن العمل المسيحانيّ في إطارٍ متعدّد الديانات؟ من المؤكّد، كما أوحينا به، أنّ محاولات الحوار بين الديانات التي تنطلق من وحدانيّة المسيح، والتي تجتهد في أن تفرض بعض الألقاب المسيحانيّة الثابتة غير القابلة التغيير، لن تجد مصيرًا سوى الإخفاق. فإنّ هذه المواقف الصلبة والثابتة تستدعي مواقف موازية لتقاليد دينيّة أخرى. فعلى سبيل المثال، يعتقد المسلمون أنّ المسيح هو نبيّ خاصّ حقًّا، في حين يعتقدون أنّ محمّدًا هو «النبيّ». ويقول البوذيّون إنّ يسوع هو مجرّد «بوذيتافا» (مؤهّل للوحي)، في حين «كوتاما» هو «البوذا». حتّى إنّ نظريّة اللاهوتيّ كارل راهنر (Karl Rahner) التي تتكلّم على «المسيحيّين المجهولين» (Chrétiens anonymes) كان لها توطئة في الهندوسيّة بهدف جمع باقي الديانات تحت سقفها المخلّص. وفي هذه الحال، يصبح يسوع وغوتاما مثالين هندوسيّين، غير أنّ المسيحيّين والبوذيّين لن يستطيعوا التعرّف إليهما إلّا قليلًا. ويلجأ البوذيّون، من ناحيتهم، إلى الاعتقاد بتعدّد الإله بوذا ليقبلوا بإمكان الوصول إلى النيرفانا خارج البوذيّة التأسيسيّة ولكن لا خارج الحقيقة التي اكتشفها بوذا.

أمام هذا الواقع، نعود إلى اقتراح دي جونج الذي يدعو إلى خلق صور وسرد أمثال وتأليف قصائد جديدة عن شخص المسيح. يتطلّب ذلك، في إطار الديانات غير المسيحيّة، الانغماس في الثقافات والتقاليد الدينيّة المتعدّدة والمشاركة فيها (هنا نستوحي أفكارنا من أ. بياريس A.

(٩) M. de Jonge، المرجع السابق، ص ٢١٤.

Pieris وهو لاهوتيّ يسوعيّ من سريلنكا[١٠]). يقصد بذلك أنّنا، بعد ما ميّزنا البعد الخلاصيّ والمحرّر في هذه الديانات، نستطيع أن نجد اللغة الأصيلة التي تسمح بأن نتحدّث عن يسوع بين المؤمنين من هذه الديانات بكلمات يستطيعون فهمها. هذا لأنّ يسوع نفسه كشف رسالته الخلاصيّة عبر دخوله مجرى المياه الخلاصيّة في ثقافته. والحدث الذي يوضّح ذلك في حياة المسيح، هو اعتماده في مياه الأردنّ، إذ إنّه أراد أن يشارك شعبه ويتضامن معه، الأمر الذي قاده إلى الاعتماد الثاني، أي موته على الصليب في مكان الجلجلة. وهذا الطريق الذي قاد يسوع من نهر الأردنّ إلى الجلجلة هو طريق الشهادة الحقيقيّة، التي دفعت بقائد المائة إلى الاعتراف بألوهيّة المسيح.

هذا ما نقصده عندما نتفهّم واجبنا التثقيفيّ. أودّ أن أذكّر هنا برسالة الأب پِدرُو أرُوبِي (P. Arrupe) عن الانثقاف التي كتبها سنة ١٩٧٨ أثر مجمع الرهبانيّة اليسوعيّة العام الثاني والثلاثين، وفيها قال: «إنّ الانثقاف هو تجسيد الحياة والرسالة المسيحيّة في وسط ثقافيّ معيّن. وليس الانثقاف تكييفًا سطحيًّا، بل هو مصدر إلهام وقوّة توحيد تحوّل الثقافة وتخلقها ثانية بحيث إنّها تغدو خليقة جديدة. إنّ المثال الذي يوحي بذلك في الكتاب المقدّس هو مثال حبّة الحنطة. فكما أنّ حبّة الحنطة تموت لتثمر، كذلك الرسالة المسيحيّة داخل الثقافات»[١١].

إنّ المسيحيّين العائشين بين غير المسيحيّين مدعوّون إلى اتّباع السبل عينها التي اتّبعها المسيح، منذ اعتماده في نهر الأردنّ حتّى الصليب. عندئذٍ سنرى مؤمنين من تقاليد دينيّة مختلفة «يستعملون الألقاب التي في حوزتهم، ورموزًا وصيغًا، ليعبّروا عن اكتشافاتهم الجديدة. حينئذٍ ترتّل الكنائس لا ترتيلة واحدة بل ألوف التراتيل للعروس والربّ الجديد» (بياريس).

---

(١٠) انظر بالأخصّ: Aloysius PIERIS, *An Asian theology of liberation*. Orbis Books, Maryknoll, New York, 1986.

(١١) Pedro ARRUPE, *Ecrits pour évangeliser*. Paris, DDB-Bellarmin, 1985, pp. 169-170.